نظم الحكم في الدولة الإسلامية

*** مدخل :**

انتشر الإسلام في إفريقية وآسيا وأوربا، ورفرفت راياته عالية في أرجاء المعمورة، وقامت العواصم الإسلامية قواعد للدعوة الإسلامية تنشر العدل والرخاء والمحبة والمساواة بين الناس، وتشع بأنوار العلم والمعرفة، وتتيح أفضل الظروف لازدهار العلم والفن في سائر ديار الإسلام.

وأرسى المسلمون في الجزيرة العربية وفي سائر بلاد الإسلام نظماً للحكم تنشر الأمن والطمأنينة، وتحقق العدل والتسامح، وتتيح لأهل الذمة من أصحاب البلاد التي دخلها الإسلام الفرص للإسهام بمقدرة وكفاية في ازدهار دول الإسلام.

وسواء أكانت الخلافة الإسلامية خلافة راشدة تسير على نظام البيعة الإسلامية أم كان الحكم وراثيا بين أبناء الخليفة وأشقائه، وسواء خضعت سائر الأمصار للخليفة في بغداد أو دمشق أم قامت بها حكومات يستقل بها الولاة ويكتفون بذكر اسم الخليفة في خطب الجمعة والأعياد على المنابر، أو كانت خلافات مستقلة معاصرة لبعضها البعض في عواصم إسلامية شتّى، كما كان الحال أيام الخلافة الأموية بالأندلس والفاطمية بمصر في الوقت الذي كان فيه الخليفة العباسي يحكم من بغداد. فإن نظم الحكم الإسلامية ورّثت العالم نماذج مُشرقةً محكمة لإدارة الدولة بمؤسسات شتى، منها: الوزارة والحجابة والكتابة والقضاء والحسبة والعسس أو الشرطة.. والبريد والجيش والأسطول.

تلك المؤسسات أقامت العدل والطمأنينة ووفرت الحماية للمجتمع الإسلامي ولمن يستظلون بظله من أهل الذِّمَّة الذين ما لبثوا أن أصبحوا جنداً للإسلام يؤمنون بعقيدته ويتحدثون بلغته ويصدون عنه كيد أعدائه من المغول والتتار والصليبيين.

وفي الصفحات التالية نماذج للمؤسسات التي قام عليها نظام الحكم في الدول الإسلامية.

***

نظم الحكم في الدولة الإسلامية

- أولاً: الحجابة:

وظيفة ديوانية كبرى من وظائف الدولة الإسلامية، والذي يقوم بها يسمى (الحاجب)، وهو من ينظم عملية دخول الذين يريدون مقابلة الحاكم من الناس، وفق نظام متفق عليه مع ذلك الحاكم.

والخليفة معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - أول من اتخذ حاجباً من حكام الدولة الإسلامية.

وعندما اتسعت الدولة الإسلامية وكثرت الوظائف الديوانية اتخذ الوزراء حُجَّاباً لهم، كما اتخذ قاضي القضاة حاجباً ينظم له دخول المتقاضين من الناس.

وقد ارتفع شأن الحجابة في الأندلس، فكان الحاجب هو الرسول بين الوزارة والخليفة، ولذلك كان لقب الحجابة من الألقاب العظيمة في الأندلس.

والحاجب في الدولة الإسلامية كيفما كانت منزلته ومكانته فإنه لايمنع ثلاثة من الدخول إلى الحاكم في أي وقت يريد الواحد منهم الدخول إليه، وهم: المؤذن للصلاة؛ فإنه داعي الله، وصاحب البريد؛ فإن أمراً ما جاء به، و رسول الثغر.

وفي اللغة: الحجابة من: حَجَب، يحجُب، حَجْباً: أي حال ومنع. فالحجْبُ هو المنع.

والحجابة، وظيفة ديوانية كبرى عُرفت في الدولة الإسلامية، وهي حرفة الحاجب، وجمعه: حُجّاب، وهو البواب أيضاً. ويقال: استحجبه: أي ولاّه الحجابة.

- أصل الخلافة:

الأصل الشرعي للخلافة كنظام للحكم في الإسلام يتمثل في الصورة التي سار عليها خلفاء رسول الله ﷺ مهتدين بهديه في رعاية شئون المسلمين وإدارة الدولة الإسلامية، وقد كان الخلفاء الراشدون أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفانَ وعليٌّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ يمثلون بحق ما ينبغي أن يكون عليه الخليفة المسلم في العدل والزهد ورعاية أمور المسلمين ونشر الدعوة الإسلامية والحفاظ على حمى الإسلام متجردين تمام التجرد من الأطماع الشخصية، مراعين وجهَ الله في كل عمل يقومون به. وكانوا بذلك يمثلون المعنى الأصلي للخلافة بوصفها «الرياسة العامة في أمور الدنيا والدين، نيابة عن النبي ﷺ.

ويقول ابن خلدون: «الخلافة هي حمل الكافَّة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة؛ فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به».

ومنزلة الخليفة من الأمة كمنزلة الرسول ﷺ من المؤمنين، له عليهم الولاية العامة، والطاعة التامة، وله حق القيام على دينهم، فيقيم فيهم حدوده، وينفذ شرائعه.

وله من باب أولى القيام على شئون دنياهم أيضاً، بيده وحده زمام الأمة؛ فكل ولاية أو سلطة مستمدة منه، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه، وكل ذلك في حدود الشرع.

كانت خلافة الخلفاء الراشدين بعد وفاة النبي ﷺ (١١-٤٠هـ/ ٦٣٢-٦٦١م) تتم بالاتفاق بين المسلمين، وتتم فيها البيعة لخليفة رسول الله وفقاً لمبادئ الشورى علناً وفي اجتماع عام.

فقد بويع أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - في سقيفة بني ساعدة من عدد كبير من المهاجرين والأنصار، وبويع في اليوم التالي في المسجد بيعة عامة أعلن على إثرها سياسته في رعاية شئون المسلمين في خطبته الشهيرة التي قال فيها:

«أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن صدفت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.

لا يدع أحد منكم الجهاد؛ فإنه لايدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

وإذا كان أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قد استخلف عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ليحل محله في الخلافة فإنه لم ينفرد بالرأي في ذلك الاستخلاف . . فقد استشار عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وأسيد ابن حضير وسعيد بن زيد وغيرهم من المهاجرين والأنصار ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ فأثنى الجميع على عمر . . ومع ذلك فقد جاء في العهد الذي عهد به أبو بكر الصديق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما :

«بسم الله الرحمن الرحيم . . هذا ما عهد أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر، ويتقي الفاجر : إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فإنْ بَرَّ وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جار وبَدَّلَ فلا علم لي بالغيب، والخيرَ أردتُ، ولكل امرئ ما اكتسب «وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون» .

وخطب أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ الناسَ، وهو في شدة مرضه يقول :

«أترضون لمن أستخلف عليكم؟ فإني والله ما ألَوْتُ من جهد الرأي، ولا ولّيتُ ذا قرابة . وإني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا» .

فقالوا : «سمعنا وأطعنا» . وكان ذلك تطبيقاً للشورى .

ورفع أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يديه إلى السماء، وهو يقول :

«اللهم إني لم أرِد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم بما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأياً، فوليت عليهم خيرهم،

وأقواهم عليهم، وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلفني فيهم، فهم عبادك، ونواصيهم بيدك. أصلح اللهم لهم ولاتهم، واجعلهم من خلفائك الراشدين، وأصلح له رعيته».

وخشى أصحاب رسول الله أن يقضي عمر بن الخطاب رضي الله عنه - الخليفة الثاني للمسلمين - نحبه دون أن يستخلف أحداً، فطلبوا إليه أن يختار من يخلفه. لكنه حرصاً على الالتزام بالشورى بين المسلمين أبدى رأيه بأن يكون خليفة المسلمين الذي يليه من بين مَنْ بشّرهم رسول الله ﷺ بالجنة، وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله رضي الله عنهم؛ ليختاروا من بينهم من يقوم بمسئولية الخلافة بعد وفاته.

وأوصى بأن يُضَمَّ عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - إلى المجموعة السابقة عندما يجلسون لاختيار أحدهم على ألا يكون له مسئولية الخلافة. وأوصى بأن تكون الخلافة في حال تساوي الأصوات للرجل الذي يكون عبد الله بن عمر في صفه.

وقال عمر للمقداد بن الأسود رضي الله عنه: «إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم».

وقال لصهيب رضي الله عنه: «صَلِّ بالناس ثلاثة أيام، وأدخل عليا وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم، وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر، وقُم على رءوسهم، فإن اجتمع

خمسة ورضوا رجلاً، وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم، وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما، فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس».

وكان أن اختير عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ للخلافة. وجاء في الخُطبة التي خطب الناس بها بعد البيعة: «إنكم في دار قُلْعَة، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه.. ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغَرورُ.. اعتبروا بمن مضى، ثم جدّوا ولاتغفلوا.. ارموا بالدنيا حيث رمى بها الله.. واطلبوا الآخرة..».

ويلاحظ أن الخطبة لم تكن تبين السياسة التي كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ ينوي انتهاجها في إدارة الدولة الإسلامية، وإنما كانت نصائح تتعلق بالدين، ويرى بعض المؤرخين أن الخطبة كانت متأثرة بشيخوخة عثمان وما فطر عليه من اللين.

وتمت البيعة لعليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بعد موت عثمان رغم تخلف بعض الصحابة عن مبايعته. ومع تولي على بن أبي طالب مسئولية الخلافة ظهرت بوادر الانقسام بين المسلمين.

فقد بدأ عَليٌّ - رضي الله عنه - بمحاولة القضاء على الفتن، وتوطيد أركان الدولة، ولكن معاوية ابن أبي سفيان والي الشام - رضي الله عنه - أصرَّ على القيام بمعاقبة قتلة عثمان - رضي الله عنه - قبل كل شيء، ومن ثَمَّ لم يذعن لعلي حين قام بعذله.

وعليه فقد قامت الحرب بين علي ومعاوية، وعقد بينهما التحكيم، ثم قتل علي... وفاز معاوية بالخلافة، وأصبحت دمشق عاصمة الأمويين وعاصمة الخلافة الإسلامية في ثوب اختلف تماماً عن الصورة التي رسمها الخلفاء الراشدون للخلافة، ممّا حدا بالإمام أبي حنيفة النعمان فيما بعد إلى أن يقول: «إن الخلافة الحقة لَم تدم إلا ثلاثين سنة من فجر الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين».

لكن الخلافة تحولت في عهد بني أمية (٤١-١٣٢هـ/ ٦٦١-٧٥٠م) إلى حكم وراثي، وأصبح معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء الأمويين يتمتع في دمشق - عاصمة الأمويين بالشام - بكل مظاهر الأبّهة التي تمتع بها الملوك والقياصرة في الدولتين البيزنطية (الرومانية) والساسانية (الفارسية)؛ فاتخذ سريراً للملك، وأقام الشرطة لحراسته، واتخذ مقصورة في المسجد يصلي فيها بعيداً عن الناس، فإذا سجد قام الحرس على رأسه رافعين السيوف.

وكان الخليفة في عهد الأمويين يعين ولي عهده، ويأخذ له البيعة من الأعيان وكبار القواد في حضرته. أما في الأقاليم والأمصار فكانت البيعة تتم لولي العهد الذي عينه الخليفة بحضور الوالي الذي يحكم نيابة عن الخليفة.

وهكذا انتقلت الخلافة من خلافة بالشورى إلى ملكية وراثية.

وعندما انتقل الحكم إلى العباسيين عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م صار الخلفاء العباسيون على النظام نفسه الذي اتبعه الأمويون في التوريث.

وصار الخلفاء العباسيون يعهدون بولاية العهد لأكثر من واحد، مما أدّى إلى الفرقة، وقيام الفتن والحروب الداخلية.

وما لبث أن قامت في بعض أجزاء العالم الإسلامي دويلات إسلامية مستقلة.. فاستقل الأمويون بالأندلس ١٣٨هـ/ ٧٥٦م، واستقل الأدارسة بالمغرب الأقصى ١٧٢هـ/ ٧٨٨م، والأغالبة بتونس ١٨٤هـ/ ٨٠٠م، وأخذت الدولة العباسية في التجزؤ والتفكك.

وخلال العصر العباسي الثاني ٢٣٢هـ/ ٦٥٦م - ٨٤٧/ ١٢٥٨م، بلغت الدولة العباسية مبلغاً كبيراً من الضعف، وأتاح ذلك الفرصة لقيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب عام ٢٩٧هـ، ثم في مصر عام ٣٦٢هـ.

وقامت كذلك الخلافة ببلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الثالث، أعظم أمراء الدولة الأموية في تلك البلاد في الفترة من ٣٠٠-٣٥٠هـ، وأصبح هناك ثلاث خلافات إسلامية:

(١) العباسيون في الشرق.

(٢) والخلافة الفاطمية ببلاد المغرب.

(٣) والخلافة الأموية بالأندلس.

وكان الخلفاء الفاطميون في المغرب يتَسَمَّون باسم أمير المؤمنين، وكذلك فعل عبد الرحمن الناصر في الأندلس.

وخلال تلك الفترة تعاقب على حكم بغداد كذلك أمراء (بني بويه) الذين يعود نسبهم إلى ملك آل ساسان (الفرس) ٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٥-١٠٦٠م، ولم يكن هؤلاء الأمراء يعترفون بحق الخليفة العباسي في السيادة على جميع العالم الإسلامي.

- ثم حكمها السلاجقة الذين يرجعون بنسبهم إلى أصل تركي في بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٦٠م، وظلوا يتوارثونها إلى أن استولى عليها هولاكو قائد المغول عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

وازدادت شوكة الموالي من الأتراك في مقر الخلافة العباسية في بغداد، وكان الخلفاء العباسيون يعتمدون على الأتراك حرسًا لهم، فما لبث هؤلاء الموالي أن أصبحوا سادة واستبدوا بسلطان الحكم، ولم يعد للخليفة العباسي من الأمر شيء سوى السلطة الدينية فيذكر اسمه في خطبة الجمعة والعيدين، وينقش اسمه على النقود. وأصبح في يد الأمراء الأتراك حبس الخليفة وخلعه وقتله.

كان صلاح الدين الأيوبي قد استطاع أن يوطد سلطته في مصر. وانتهز فرصة مرض الخليفة الفاطمي العاضد فانتزع منه الخلافة، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي المستضيء عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وأمر بالدعاء له على منابر اليمن والشام وفلسطين.

وحرص الظاهر بيبرس من أمراء المماليك بمصر ٦٥٨-٧٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م، على استقدام أحد رجال الدولة العباسية في عام ٦٥٩هـ، (وكان هولاكو قد احتل بغداد وأسقط الخلافة العباسية فيها عام ٦٥٦هـ)، وأعلنه بيبرس خليفة بمصر. وكان اسم بيبرس يقترن باسم الخليفة عند الدعاء له في الصلاة، كما كانت النقود تحمل اسم بيبرس واسم الخليفة في آن واحد.

ولم يكن المغول الذين اعتنقوا الإسلام في بغداد يهتمون بالخلفاء العباسيين في القاهرة. وأصبحت كلمة (خليفة) تشير إلى بعض الواجبات الدينية فقط التي يقوم بها، دون أن يكون لها أية دلالة في ممارسة شئون حكم المسلمين. وكان الخليفة مهدداً بالخلع إذا ما حدثته نفسه بالتدخل في أي شأن من شئون الدولة.

وظل هذا النظام معمولاً به في مصر حتى جاء السلطان العثماني سليم الأول ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، وأخذ معه الخليفة العباسي إلى القسطنطينية.

ولم يحرص السلاطين العثمانيون في مصر في مكاتباتهم الرسمية على أن يلقبوا بلقب الخلفاء إلا في القرن الثامن عشر الميلادي.

وفي القرن التاسع عشر ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٦م جاء في الدستور الذي صدر في عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني نَصٌّ يشير إلى (السلطنة العثمانية التي آلت إليها الخلافة الإسلامية العظمى) وأن هذه السلطنة «تئول إلى أكبر أبناء السلطان بصفته خليفة المسلمين؛ حيث قد أصبح حامي الدين الإسلامي».

وظل الحال كذلك إلى أن ساءت حال الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى ووقّعت تركيا مع الدول الغربية صلحاً أعلنت الجمهورية التركية الحديثة على أثره في عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م.

ورأى الأتراك أن بقاء الخلافة بها قد يثير بعض المتاعب، بعد أن أخذ مصطفى كمال أتاتورك بمبدأ فصل الدين عن السياسة، وألغيت الخلافة الإسلامية في عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م.

- أمير المؤمنين:

لقب أطلق على الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين رضي الله عنه. وكان اللقب الذي يطلق على أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - هو (خليفة رسول الله).

ومعنى لقب (أمير المؤمنين) ودلالته أن المؤمنين قد أصبحوا قُوَّةً، وأن الخليفة هو أمير تلك القوة، وكان لقب (الأمير) عند العرب في الجاهلية يُطْلَقُ على قائد الجيش.

وقد أطلق المهدي - أول الخلفاء الفاطميين - على نفسه لقب (المهدي أمير المؤمنين».

- الإمام:

لقب يطلق على خليفة المسلمين الذي يتولى شئونهم الدينية والسياسية معاً.. وتتمثل في هذا اللقب الصفة الدينية من حيث الأمانة في الصلاة بشكل خاص.

وكانت إمامة المسلمين في الصلاة من أهم الأدلَّة التي استند إليها الصحابة في أحَقِّيَّة أبي بكر - رضي اللّه عنه - بالخلافة بعدَ وفاة النبي ﷺ.

فيؤم المسلمين في الصلاة، ويعين الولاة والقضاء، ويعزلهم إذا ما حادوا عن الحقِّ، ويسند المناصب الرفيعة إلى من يأنس فيهم القدرة على القيام بها، ويعفي منها من يرى إعفاءه. وهو الذي يكاتب الأباطرة والملوك خارج ديار الإسلام، ويعلن الحرب إذا دعت لذلك ضرورة؛ دفاعاً عن الإسلام، ويتولى قيادة الجيوش الإسلامية بنفسه، أو يعين عليها من يأنس فيه الكفاءة والقدرة على القيادة.

وله يدين المسلمون بالسمع والطاعة، فَيُدعى له بالتوفيق والنصر في خطب الجمعة والعيدين في سائر مساجد الدولة الإسلامية.

ويحرص كل أمير أو حاكم يصل إلى الحكم في أحد الأقاليم الإسلامية تحت أي ظرف من الظروف على أن يحصل على موافقته ورضاه ليكون له من ذلك سندٌ شرعي يستند إليه في السلطة التي يمارسها.

وكان الخلفاء بعد النبي ﷺ يحافظون على وظيفة الإمامة في الصلاة لما تدل عليه من صفة القيادة، كما كانت الإمامة من أهم أعمال الولاة في الأمصار الإسلامية.

- البيعة:

أسلوب لجأ إليه المسلمون في اختيار خليفة رسول اللّه ﷺ الذي يرعى شؤون المسلمين، ويمسك بيده زمام الحكم في الدولة الإسلامية في شؤون الدنيا والدين.

وكانت (البيعةُ) أو (المبايعة) في عهد الخلفاء الراشدين تَتمُّ في مكان يجتمع فيه صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار في قاعدة الحكم الإسلامي (المدينة المنورة)؛ للتشاور حول من يتم استخلافه من صحابة رسول الله، ثم يلي ذلك اجتماعٌ عام في المسجد تُعْلَنُ فيه (البيعة العامة). ويقوم الخليفة الذي تم الاتفاق على بيعته بإلقاء خطبة يشرح فيها سياسته، ويعاهد المسلمين فيها على العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسنن الخلفاء من بعده.

وهكذا نرى أن البيعة في الإسلام كانت على بساطتها أسلوباً من أساليب الشورى؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ [الشورى: ٣٨] حيث يتاح لجميع أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم أن يتشاوروا ويتحاوروا بالحجة والمنطق؛ تأييداً أو اعترافاً لشخص الخليفة الذي يختارونه من بينهم ليخلف رسول الله ﷺ فيهم والبيعة بذلك الأسلوب- وإن لم تكن مطابقة لأسلوب الانتخاب الذي تعرفه النظم الديموقراطية في عهدنا الحاضر- إلاَّ أنها كانت على بساطتها هي الصحيحة للتعبير عن الرأي بما يلائم بساطة الحياة في ذلك العصر الذي يمتد في أعماق التاريخ إلى أكثر من أربعة عشر قرناً.

وليس غريباً إذن مع اتساع الدولة الإسلامية، ومع ازدياد نفوذ بعض الولاة في تلك الدولة ودخول كثير من الأمصار في ديار الإسلام، ومع رغبة بعض الولاة في الاستئثار بالسلطة أن تتحول البيعة إلى أداة في أيدي بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين يوجهونها لخدمة طموحاتهم الشخصية،

فتكون البيعة لأبناء الخليفة وأحفاده أو لإخوته من بعده. . وبذلك تحوّلت البيعة الإسلامية بعد عهد الخلفاء الراشدين في كثير من الأحيان إلى بيعة للإخوة أو الأبناء. وصارت الخلافة بذلك في معظم العهود إرثا.

- بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه «بيعة السقيفة»:

والسقيفة هنا هي سقيفة بني ساعدة، ظُلّة كانت لهم بالمدينة المنورة، وقد تمت بيعة السقيفة لأبي بكر الصديق بعد وفاة رسول الله ﷺ عام ١١هـ، وبيعة السقيفة بيعة خاصة؛ لأن البيعة العامة تمت في مسجد رسول الله ﷺ في اليوم التالي لبيعة السقيفة.

وقد كاد ينشأ خلافٌ بين المهاجرين والأنصار حول من يَخْلُفُ الرسولَ ﷺ في رعاية شئون المسلمين. . أيكون هذا الخليفة من بين الأنصار وهم أهل المدينة الذين آوَوا الرسولَ وآزَرُوه ونصروه، أم من المهاجرين وهم من أهل مكّة السابقين في الإسلام الذين صبروا مع الرسول، وتركوا ديارهم وأموالهم نُصْرةً لدين الله؟

ووقف سعد بن عبادة سيد الخزرج خطيباً في الأنصار يدعوهم إلى اختيار خليفة رسول الله من بينهم. وكان مما قاله:

«يا معشر الأنصار، لكم سابقةٌ في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن محمداً -عليه السلام- لَبثَ بضْعَ عَشْرَةَ سنةً في قومه يدعوهم إلى عبادَة الرحمن وخَلْع الأندَاد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجالٌ قليلٌ . . استبِدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم. . ».

وأسرع عمر بن الخطاب ومعه أبو بكر الصديق وأبو عبيدة بن الجراح -رضي الله عنهم- إلى السقيفة، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، فذكر فضل الأنصار ومركزهم في الإسلام، وكان مما قاله:

«وأنتم معشر الأنصار ممن لا ينكر فضلهُم في الدين ولا سابقتهُم العظيمةُ في الإسلام، رَضِيكُمُ اللهُ أنصاراً لدينه ولرسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم حلّ أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحنُ الأمراء وأنتم الوزراء. فلا تفتاتون بمشورة، ولا تُقْضى دونكم الأمورُ..».

وقام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وأدْلَى بالحجة على أن هذا الأمر لقريش، وكان مما قاله: «والله، لا ترضى العربُ أن يؤمروكم وبيتها من غيركم».

وبايع عمرُ أبا بكر بالخلافة، ثم بايعه أبو عبيدة، وسبقهما بشير بن سعد، ثم تتابع المهاجرون والأنصار يبايعونه.

- بيعة عمر بن الخطاب:

خَشِيَ أبو بكر -رضي الله عنه- عندما داهَمهُ مرضُ الموت أنْ يختلفَ المسلمون حَوْلَ مَنْ يتولّى الخلافة بَعْدَهُ، فرأى أنَ يحتاط لهذا الأمر. فنظر في أصحابة ليَتَخَيَّر مِنْ بَيْنهم رجُلاً يكون شديداً في غير عُنف ليِّنًا في غير ضَعْف.

ووَقَعَ اختيارُهُ عَلَى عُمَرَ بن الخطّاب، ومع ذلك لم يشأ أن ينفرد بالرّأي. فاستدعى بَعْضَ ذَوي الرّأي الرّاجح، وسألهم رأيهم في عُمَرَ فأثنوا عليه ووافقوا على اختياره، وأشرف أبو بكر على النّاس وهُوَ في شدّة مرضه وهو يقول:

«أترضَوْنَ بمَنْ أستخلفُ عليكم؛ فإنّي والله ما ألَوْتُ من جهد الرّأي، ولا ولّيْتُ ذَا قرابة، وإني قد استَخْلفتُ عليكم عُمَرَ بنَ الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا».

فقالوا: «سَمِعْنا وأطَعْنا».

- بيعة عثمان بن عفان:

لما طُعِنَ عمر بنُ الخطّاب -رَضيَ اللّه عنْهُ- خشي أصحابُ رسول الله ﷺ أن يقضيَ عمرُ نَحبَهُ دُونَ أن يَستَخْلفَ أحدا، فذهبوا إليه وقالوا: «يا أميرَ المؤمنين لو عَهِدْتَ عهداً. فقال: «عليكم هؤلاء الرهطَ الذين ماتَ رسولُ اللّه ﷺ وهو عنهم راض وقال فيهم إنهُم منْ أهل الجَنة: عَليُّ ابن أبي طالب، وعثمانَ بن عفان، وسعد بن أبي وقّاص، وعبد الرحمن ابن عَوْف، والزبير بن العوّام حواريّ رسول اللّه وابن عَمّته، وعبد اللّه بن عُمَرَ على ألا يكون لَهُ من الأمر شيء».

وأوْصى بأن تكونَ الخلافَةُ للرّجل الذي يقع عليه الاختيارُ من الفريق الذي في صفّه عبد اللّه بن عمر في حال تساوي الأصوات. وكان مما قاله للمقداد ابن الأسود: «إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرّهطَ في بيتي حتى يختاروا رجلاً منهم».

وقال لصُهَيْب:

«صَلِّ بالناس ثلاثة، وادْخل عليهم، علي وعثمان والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وطَلحة إن قَدِمَ، وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء لهُ منَ الأمر، وقُمْ على رءوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحدٌ فاشْدَخْ رأسهُ بالسيف وإنْ اتفق أربعة ورضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رأسيهما، فإن رضيَ ثلاثةٌ رجلاً منهم وثلاثةٌ رجلا منهم فحكِّموا عبد الله بن عمرَ، فأيّ الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عمّا اجتمع عليه النّاس».

وبعد وفاة عمر تولى عثمانُ بنُ عفانَ الخلافةَ، وقد تولى عبد الرحمن ابن عوف المهمة التي أوصى بها عمر.

- بيعة علي بن أبي طالب:

كان أكثرُ الصحابة متفرقين في الأمصار عند وفاة عثمان بن عفّان رضي اللّهُ عنه. وكان عليٌّ هو المرشحَ الأوّلَ للخلافة. فقد كان أوّلَ من آمن بالنبيِّ منَ الصِّبيان، وهو ابن عمِّ النبيِّ، وزوج ابنته، السيدة فاطمة الزهراء.

وكان عمر لا يعمل عملاً دون مشورة عليٍّ، كما أنَّ عثمان بنَ عَفّان كان يستشيرُه في كثير من الأمور.

وكان عليٌّ بَيْنَ مَنْ رشَّحَهُمْ عمرُ لخلافته، وكادت الخلافَةُ أن تناله في الحوار الذي حَسَمَهُ عبدُ الرحمن بن عَوْف بَعْدَ مَقْتَلِ عمرَ بن الخطاب، لولا أنه كان مُتَحَفظاً في إجابته عندما طلب إليه عبدُ الرحمن أن يَعدَ بالعملِ بكتاب اللّه وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده؛ إذ كان جوابهُ عند ذاك: «أرجو أن أفعل، وأعْمل، وأعْمَلَ بِمَبلغِ علمي وطاقتي». على حين أجاب عثمانُ عند ذاك: «نعم!».

ومن ثمَّ تَمَّت بَيْعَةُ عَلِي بَعْدَ وفاةِ عثمانَ بن عفَّانَ رَضيَ اللّه عنهما.

- بيعة يزيد بن معاوية:

استعمل معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية -وكانت عاصمة الخلافة الإسلامية فيها دمشق- الدهاء لكي يثبت الخلافة من بعده لابنه يزيد، فكان «يعطي المقارب، ويداري المباعد ويلطف به، حتى استوثق له أكثر الناس» وبايعوا ابنه يزيد.

ولما تمت بيعة أهل الشام والعراق ذهب إلى (المدينة) لأخذ البيعة لابنه، فقابله الحسن بن علي وعبد اللّه بن الزبير وعبد اللّه بن عمر.. وتكلم معهم في شأن البيعة، فقال ابن الزبير: نخيِّرك بين ثلاث خصال. قال: اعرضهن. قال: تصنع كما صنع رسول اللّه ﷺ، أو كما صنع أبو بكر، أو كما صنع عمر. قال: وماصنعوا؟ قال: قبض رسول اللّه ﷺ ولم يستخلف أحداً، فارتضى الناس أبا بكر. قال: ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف. قالوا: صدقت. فاصنع كما صنع أبو بكر؛ فإنه عهد إلى رجل

من قاصية قريش ليس من بني أمية، فاستخلفه. وإن شئت فاصنع ما صنع عمر، جعل الأمر في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه. قال معاوية: هل عندك غير هذا؟ قال: لا. فقال معاوية: فأقسم بالله، لئن رد عليَّ أحدُكم كلمةً في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يُبقيَنَّ رجلٌ إلا على نفسه ثم دعا بصاحب حرسه بحضرتهم. فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة تصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما. ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لا يبتز أمر دونهم، ولا يقضى إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا اليزيد، فبايعوا على اسم الله. فبايع الناس. . وهكذا تمت البيعة ليزيد بن معاوية في المدينة المنورة تحت أسنة السيوف، وانتقلت الخلافة من الشورى إلى الملكية الوراثية.

- مجلس الملك:

اتخذه الخلفاء الفاطميون بمصر لينعقد فيه المجلس الذي يبحث شئون الخلافة بحضرة الوزير وقاضي القضاة وداعي الدعاة وقائد الحرس وغيرهم من أصحاب الرأي والمشورة.

فقد بنى المعز لدين الله الفاطمي (قاعة الذهب) لينعقد فيها هذا المجلس. وكانت تلك القاعة تُوَضِّحُ الأبهة التي كانت تصاحب الخلفاء الفاطميين في مجالسهم؛ فقد كانت مؤثثة بأثاث فخم ومُزَيَّنَةٌ بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب. وكانت كلها من رسم ولون واحد.

وفي صدر (قاعة الذهب) حَشِيَّةٌ عليها عرش الخليفة المحجوب بستور، حَتى إذا جلس الخليفة وانعقد المجلس رُفِعَتْ تلكَ الستورُ.

وكانت العظمة الملكية تظهر بأجلى مظاهرها إذا ما انفرج الستران الحريريان بفعل اثنين من الأساتذة بأمرٍ من رئيس القصر الذي كان يحملُ لقب (زمام القصر)، فيظهر شخص الخليفة وحوله جماعةٌ من القُرَّاء يأخذون في ترتيل آيات القرآن الكريم بأنغام عالية، ثم يأتي (حامل الدّواة) فيضعها على طرف الحشية المخصصة لها.

وكان زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب في الوقت الذي يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم. وعند ذاك يأخذ أحدُ الأمناء في تقديم الأشخاص الذين يرى تقديمَهمُ للخليفة.

وكان الوزير أول من يُقَدَّمُ إلى الخليفة، فيخطو إلى الأمام ثم يُحَيِّي الخليفة بتقبيل يديه ورجليه، ويتراجع إلى مكانه، ويظَلُّ واقفاً. ثم يُؤذَنُ له بوسادة يجلس عليها إلى يمين الخليفة، ثم يتلوه قاضي القضاة فيقترب من الخليفة ويحييه برفع يده اليمنى ويشير بمسبحته قائلاً: «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»

وإذا رأى الوزير أن يشاور الخليفة في أمر من الأمور اقترب منه واعتمد على سيفه، ثم يشرع في محادثته. وكان مجلس الملك ينعقد لمدة ثلاث ساعات في العادة، فَتُقَدَّمُ فيه الأمور المهمة لبحثها واعتمادها من الخليفة.

وللوزير أن يقترح خَلْعَ الخلَعِ أو إسنادَ المناصب المختلفة إلى من يُقَدِّمُ أسماءهم.

فإذا انفرط عقد المجلس انصرف الحاضرون، وانصرف الوزير في آخرهم بعد أن يلْثِمَ يَدَيْ مولاه ورجليه مرّةً ثانية، ثم يركب إلى داره يحفُّ به سائر أعضاء المجلس. ثم ينزل الخليفة عن سرير المُلْك، ويغادرُ الإيوان فَتُسْدَلُ الستور، ويقفل البَابُ.

- موكب الخليفة للصلاة :

وكان قاضي القضاة أيام حكم الفاطميين يذهب إلى المسجد يوم الجمعة قبل وصول الخليفة بقليل، ويقوم بتبخير منبر المسجد والقبة التي يقف الخليفة تحتها وقت إلقاء الخطبة. وكان الخليفة يرتدي في ذلك اليوم ثوباً من الحرير الأبيض ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق، ويحمل قضيب الملك بيده، ويحفُّ به عددٌ كبيرٌ من حرسه الخاصّ ومن الجنود والأشراف، ويتْبع هؤلاء جمع غفيرٌ من النّاس.

وكان الخليفة يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وقراءة القرآن بنغمات شجيَّة حتّى يصل إلى قاعة الخطابة وهي القاعة الخاصة باستقباله، ويحرسها قائد القُوّاد وكبير الأمناء ونخبةٌ من حرس الخليفة، ويَظَلُّ فيها حَتى ينتهيَ الأذان، وحينذاك يدخل قاضي القضاة ويقول:

السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي ورحمةُ الله وبركاته . . الصلاةُ يَرحمكَ الله».

فيخرج الخليفةُ وحوله الأستاذون المحنَّكون، ويتبعه وزيره وجماعة من حرسه مدججين بالسلاح، فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر . . أما الخليفة فيستمر في سيره حتّى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر. ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه تجاه الخليفة . . فإذا أومأ إليه صعد فقبّل يَدَيْ مولاه ورجْلَيه، وزَرَّ السترَيْن عليه. وبذلك يكونُ المنبرُ والقُبَّةُ كالهودج، ثم يترك الوزير، وينتظر على باب المنبر.

وكان الخليفة يختم خطبته بالدعاء للوزير وبنَصْرِ الجيش وخذلان الكفار والمشركين . . فإذا فرغ من خطبته قال: «اذكروا الله يذكركم».

ثم يصعد الوزير فيحُلُّ السترَيْن، ويظلُّ هو وقاضي القضاة على الباب، ويقوم الأستاذون المحنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة. بعد هذا يأخذ الخليفة في الصلاة، ويُبَلِّغُ الوزير عنه، ثم قاضي القضاة والمؤذنون.

فإذا ما انتهت الصلاة يخلو الجامع من النّاس، ويخرج الخليفة يحيط به الوزير عن يمينه وقاضي القضاة وداعي الدُّعَاة عن يساره وحرسه الخاص.

ويعود في موكبه على الهيئة التي اتخذها في ذهابه إلى الجامع.